هنا وهناك

حمـــاية التفكير

وتكريم النبوغ

للأستاذ محمد عبد الله عنان

نقرأ تباعاً أنباء الجوائز العلمية أو الأدبية أو الفنية التي تمنحها المؤسسات والهيئات العلمية المختلفة لأقطاب رجال التفكير والآداب والفنون ؛ وهناك غير الجوائز المحلية القومية التي تنظم في كل أمة لتشجيع الحركة الفكرية ، جوائز عالمية ترمي الى تشجيع أبدع ما يخرج الذهن البشري في أي البلاد أو الأمم ؛ ولعل جوائز « نوبل » هي أشهر جوائز من هذا النوع ، فهي تمنح الى أقطاب العلم والأدب والسياسة في أنحاء العالم دون فارق بين الجنسية أو الدين أو اللغة ، ثم هي تمنح للنساء كما تمنح للرجال ؛ وهذا هو أبدع ما في هذه الجوائز ، فهي تقصد الى تكريم النبوغ البشري حيث يوجد ، وهي ترتفع فوق جميع الاعتبارات القومية ، ولا تنظر إلا الى أفق الانسانية الشاسع . ولقد خلد ألفرد نوبل السويدي ، صاحب هذه الوصية العلمية والانسانية الجليلة ، اسمه بتأسيسها وتنظيمها بما لم يخلده فاتح ؛ والواقع أنه لم يكن ينقص هذا المخترع العبقري شيء من بعد الصيت والذكرى ، فقد كان عالماً ومخترعاً عظيماً : له ثبت حافل من الاختراعات العظيمة ؛ وقد كان لتجاربه واكتشافاته في أواخر القرن الماضي أثر عظيم في تقدم الفنون العسكرية ولا سيما فيما يتعلق « بالديناميت » الذي وصل إلى اكتشافه وتركيبه . ومن الغريب أن يتجه هذا الذهن الذي أنفق نبوغه في اختراع المفرقعات المهلكة ، الى تشجيع النبوغ البشري في مختلف نواحي التفكير والآداب ، وأغرب منه أن يتجه الى تشجيع السلام العالمي ، فيخصص ضمن جوائزه الشهيرة جائزة لأية جماعة أو شخصية تمتاز بخدماتها الجليلة لقضية السلام

وليست جوائز نوبل سوى مثل من أمثلة لا تحصى لهذا النظام المحمود — نظام الجوائز العلمية — الذي ترتبه جميع الأمم المتمدنة لتشجيع الحركة الفكرية ، وتكريم أبنائها الممتازين بسمو التفكير والابتكار ، ومعاونة الأذهان والعبقريات المغمورة على الظهور والعمل لاستثمار كفاياتها ومواهبها في مختلف النواحي . ولنلاحظ أن هذه الجوائز الشهيرة إنما هي من وضع فرد فقط ، وأن كثيراً من الأغنياء في بلاد الغرب يحذون مثل الفرد نوبل فيهبون الألوف والملايين الى الجامعات والجماعات العلمية والأدبية ؛ ويرتبون الجوائز لتشجيع الباحثين والمفكرين ، وإظهار جهودهم ، وثمرات نبوغهم ؛ وفي كل يوم نقرأ نبأ هذه الهبات والجوائز السنية ، ونهتز اعجاباً واكباراً لهذه النفوس والهمم الرفيعة التي تجد مثلها الأعلى في العمل على تشجيع المثل العليا ، ولا تنظر الى المال إلا كوسيلة لأذكاء النبوغ واستثماره لخير العلم والانسانية . وفي هذه الأمم التي يتقدم أغنياؤها للاضطلاع بهذه الأعمال الجليلة نجد الحكومات والهيئات العلمية الرسمية تعنى أشد العناية بذل هذا التشجيع المنظم للدرس والبحث والنبوغ ؛ ففي الجامعات ترتب جوائز دائمة لنوابغ الطلاب ، فضلاً عن إعفائهم من أجور الدراسة ، وترتب جوائز دورية مختلفة لتشجيع البحوث والجهود العلمية الممتازة ؛ ولا تكاد توجد هيئة علمية أو أدبية ، إلا ولها جوائز دورية ثابتة تمنح لكل عامل لتحقيق الأغراض العلمية أو الأدبية التي رتبت لتشجيعها . وأمامنا مثل الجمعيات الطبية والجغرافية والتاريخية في مختلف العواصم الغربية ، فانها جميعاً تبذل من المعاونات المادية في سبيل البحث والدرس والاستكشاف ما هو معروف ومشهور ؛ ويكفي أن نذكر أن معظم الاكتشافات العلمية والطبية والجغرافية ، تمت تحت رعاية هذه الهيئات المحترمة . بل يكفي أن نذكر أن معظم العلماء والمكتشفين لا يستطيعون القيام بمشروعاتهم الا بمؤازرتها المادية ، وأنها هي التي أوفدت في العصر الحديث معظم المكتشفين الى مختلف مجاهل أفريقية وآسيا والقطبين

والخلاصة أن الهيئات الرسمية والخاصة في هذه الأمم العظيمة ، تتحد جميعاً في مؤازرة الحركة العلمية ، وتشجيع التفكير والنبوغ بجميع الوسائل . على أن أبدع ما في هذه النزعة ، هو الجهود الخاصة والفردية ؛ وليس مثل الفرد نوبل وحيداً ، وان كان من أعظم الأمثلة وأبدعها ؛ فهنالك في فرنسا مثلا مشروع جائزة

« چونكور » الذى وضعه الكاتب الفرنسى أدمون چونكور لتتويج الآثار الأدبية البارزة ؛ وقد وهب المشروع مالا كثيراً ، وما زالت « أكاديمية چونكور » منذ أواخر القرن الماضى تمنح جوائزها الأدبية للكتاب والقصصيين النابهين ، عاماً بعد عام ؛ وما زالت تعتبر شرفاً أدبياً يطمع الفائزين بطابع النبوغ ، ولا سيما كتاب الشباب ، ويفتح أمامهم أبواب المستقبل الذهبى ؛ وهنالك أيضاً أمثلة عديدة لهذه الجهود والمنشآت الفردية ، كما أن هنالك صحفاً كثيرة تنشئ مثل هذه الجوائز الأدبية ؛ ولهذه الجهود المتحدة بلا ريب أثرها القوى فى تقدم الحركة الأدبية وازدهارها فى هذه الأمم

أما نحن فلم نعرف بعد أهمية هذه المؤازرة العلمية ، ولم تأخذ بها إلى اليوم جماعاتنا العلمية الرسمية ؛ ولم يسعفها بعد أغنياؤنا . فوزارة المعارف لم تفسح فى ميزانيتها أى مجال لمثل هذه المؤازرة ، لأنها لا تريد على مايظهر أن تضطلع برعاية الحركة الفكرية العامة ، وتريد أن تقتصر دائماً على شئونها الأدارية ؛ ولدينا جامعة دينية عظيمة ولها ميزانية ضخمة ، ولكننا لم نسمع أنها تقدمت ذات يوم لمؤازرة أى مجهود علمى حتى فى دائرة مهمتها الدينية ، فلم تساهم قط فى تشجيع المباحث الاسلامية التى تنفق فى سبيلها الجامعات الأوربية مئات الألوف تحقيقاً لمهمتها العلمية ، ولم تساهم قط فى إخراج أى أثر دينى أو عربى جامع ؛ ولم نسمع أنها رتبت جائزة علمية محترمة ؛ ولدينا الجامعة المصرية مازالت تحتفظ بأفقها المدرسى ، وما زالت بعيدة عن أن تخلق ذلك الجو العلمى الذى يمكن أى تنضوى تحت لوائه الجهود العلمية الفردية ؛ ولم نعرف أن الجامعة ساهمت فى تشجيع مجهود علمى فردى ، ولا نعلم أنها على استعداد لذلك ؛ كذلك لم تعرف الجامعة المصرية بعد نظام الجوائز العلمية والأدبية المحترمة ، وإن كانت تعرف كيف تغدق على الأساتذة الأجانب ؛ ولدينا عدة جمعيات علمية تتمتع بالرعاية الرسمية وبأموال الدولة ، ولكنها جميعاً أجنبية فى روحها وعواطفها ، ولا يمكن أن تعتبر بحال ما مصرية ، ولا يمكن أن تضطلع بمثل هذه المهام العلمية المحلية ، التى يجب أن تتوفر لمؤازرتها عاطفة قومية لا توجد فى هذه الجماعات

على أن هناك لدى جهاتنا الرسمية نزعة أخرى إلى تشجيع الجهود «العلمية» لا يمكن تجاهلها ، ولكنها مع الأسف وقف على الأجانب ؛ ونستطيع أن نحصى عشرات العلماء الأجانب الذين يفوزون بتعضيد الهيئات الرسمية المصرية للقيام بمختلف المهام العلمية أو لأخراج جهودهم ، وهم لا يجدون مشقة فى الحصول على هذه الهبات والجوائز السنية ؛ ولكنك لا تجد مفكراً مصرياً استطاع أن يحظى بهذه الرعاية . ولا ريب أن تشجيع الجهود العلمية مبدأ محمود فى ذاته ، والعلم لا وطن له ؛ ولكنه لا يقتضى الأيثار وحرمان المفكرين المصريين من كل تعضيد ومعاونة ، بينما يرتع العلماء الأجانب فى أموال الأمة المصرية ؛ وما زلنا نذكر الضجة التى قامت منذ أشهر حول المنح المالية الباهظة التى أغدقت على أستاذ انكليزى هو الكبتن كرزويل ، لكى يخرج كتاباً له ولم يخرج منه سوى مجلد واحد ، وكان مجموع الهبات التى استولى عليها من مختلف الجهات الرسمية يبلغ بضعة آلاف جنيه ؛ وهنالك علماء أجانب يتقاضون الألوف المؤلفة من الأموال المصرية لكى يضعوا كتباً معينة ؛ وتطلع علينا هذه الكتب من آن لآخر باللغات الأجنبية ، فلا نراها ترتفع الى مستوى المؤلفات العلمية القيمة ، ولا نرى فيها سوى كتب دعاية ينقصها الطابع العلمى المحترم ؛ وما زلنا نذكر تلك البدعة التى ظهرت فى الأعوام الأخيرة ، وهى انتداب بعض الجهات الرسمية لبعض العلماء الأجانب الذين يؤمون مصر فى الشتاء زائرين متنزهين ، لألقاء بعض المحاضرات ، ومنحهم عن المحاضرة الواحدة مكافآت باهظة تبلغ أحياناً خمسين جنيهاً !

* * *

لقد كانت الرعاية العامة وما زالت أكبر عامل فى تشجيع الحركات الفكرية وازدهارها . ومع أن قسطاً كبيراً من هذه الرعاية تضطلع به الهيئات الخاصة والأفراد النابهون فى الأمم الحية ، فان الحكومات والجامعات وما اليها من الهيئات العلمية الرسمية تقوم بتنظيم هذه الرعاية والسهر على توزيعها حيثما تبزغ بوادر النبوغ . ذلك أن النبوغ يعتبر فى الأمم الحية ثروة قومية تجب المحافظة عليها واستثمارها وحمايتها من عوامل الخمول واليأس . ولقد مرت عصور كثيرة فى تاريخنا كانت الحركة الفكرية فيها تأخذ حظها من الرعاية والمؤازرة ؛ وكان العلماء

والمفكرون يتبوأون أرفع مكانة وتتدفق عليهم المنح والهبات الوفيرة لكي يتفتح نبوغهم ويستطيعون العمل في دعة وسكينة ؛ وكان الخلفاء والسلاطين يأخذون بأعظم قسط في تشجيع الحركات الأدبية ، وكان من بواعث الفخر أن يكون القصر أو العاصمة ملاذاً لأكبر عدد من الكتاب والشعراء ؛ وكان من زينة العصر والدولة دائماً أن تزدهر الحركات الفكرية في ظل الرعاية الرسمية ؛ وهاهو ذا الأزهر لم يعاونه على الحياة حتى عصرنا سوى التفات السلاطين اليه وتعهد علمائه وطلبته بالبذل والعون . ولم يكن الملق ، دائماً ، كما هو الشأن في أيامنا ثمن هـذه الرعاية . ذلك أن رعاية العلم والعلماء في تلك العصور كانت تعتبر من واجبات الدولة القوية المستنيرة ، وكان العلماء يعملون في ظل هذه الرعاية مستقلين في الغالب ، ولم يكن يطلب اليهم دائماً أن يكونوا أذناباً أو دعاة للأسر أو الحكومات التي تشملهم برعاية يعتبرونها حقاً عاماً لهم يجب تأديته اليهم .

ومن العبث أن ندعى أن الحكومات والهيئات الرسمية المصرية المختلفة قد استطاعت أن تؤدى هذا الواجب العام أو بعضه نحو رعاية الحركات الفكرية في عصرنا . والحركة الفكرية لم تفد شيئاً من تلك الدعايات الواسعة التي تذاع حولها ، وتلك المنشآت العقيمة التي تقام باسمها ، والتي يراد أن تكون هياكل فقط تمجد العصر وتنسب اليه ؛ وما نخشاه هو أن الجهات الرسمية ما زالت بعيدة عن تقدير هذا الواجب ، بعيدة عن تأديته . إن النبوغ في مصر ما زال يعني الفقر والبؤس ، إذا لم يوفق من تلقاء نفسه الى الخروج من غمرة الظلمات والصعاب التي ينشأ فيها ؛ بل نستطيع أن نقول أكثر من ذلك ، هو أن النبوغ يعتبر في مصر أحياناً خطراً يخشى منه ويجب اتقاؤه ؛ وعندئذ يشترى لا ليمضد ويزدهر ، بل لكي يسكت ويقبر . أما أغنياؤنا فلن نطمع أن نجد بينهم واحداً يقدر واجباً لا تقدره الحكومة ؛ ومن المحال أن يروا مثلهم الأعلى في رجال كالفرد نوبل يرون ذخر الانسانية في صون التفكير الانساني ، والارتفاع به الى ذرى التقدير والاجلال ؟

محمد عبد الله عنان
المحامى

الشيخ الخالدى

للدكتور عبد الوهاب عزام

لقيت في الآستانة منذ خمس سنين شيخاً جليلاً ينقب عن الكتب ، ويتحدث عن نوادرها ، وعرفت أنه الشيخ خليل الخالدى رئيس محكمة الاستئناف الشرعية في القدس

ثم شرفت بلقائه في مصر مرات . كان كلما قدم القاهرة تفضل فزارني في الجامعة . تقابلنا مرة فتكلم عن الكتب والمؤلفين كلام خبير بحاثة . فحرصت على لقائه والافادة منه فراعني علم لا ينفد ، وحفظ لا يخطئ

يبدأ حديثه عن الكتب ، فيذكر أنه رأى كتاب كذا في مكتبة كذا ، ويصف النسخة وماعليها من سماع العلماء ، ثم يتكلم عن قيمة الكتاب ومكانته بين أشباهه ، ويذكر المؤلف فيبين عن تاريخه ومكانته من العلم ، ودرجته بين العلماء ، وهلم جراً . يفضى من حديث إلى حديث ، والسامع فرح بمايسمع ، معجب متعجب . وقد زار مكاتب الآستانة والأناطول وفينا والشام ومصر وبلاد المغرب والأندلس ، ونقب فيها عن نفائس الكتب ، فأحاط بما لم يحط به سواه . والشيخ حفظه الله منقطع النظير في هذا الموضوع ما رأيت ولا سمعت بمثله

وهو من أسرة الخالدى إحدى أسر الشام العظيمة ، تنسب إلى سيدنا خالد بن الوليد . وهي معروفة في التاريخ بأسرة الديرى ، وفيها العلماء والقضاة في الشام ومصر منذ خمسمائة وخمسين سنة

والشيخ نزيل القاهرة الآن . وقد أسعدنى الجد بلقائه مرات في شعبان ورمضان هذا . وأرجو أن أسعد أنا وأصدقائى بحديثه مرات أخرى قبل رجوعه الى فلسطين

وقد حرصت أن أكتب عن الشيخ بعض أحاديثه دون أن أشعره بذلك ، فلما اجتمعنا في حلوان ليلة السبت ثامن رمضان ، سأله بعض الحاضرين سؤالاً فشرع في حديثه ، فدونت بعض ما قاله إجمالاً ، ثم عدت إليه بعد انفضاض المجلس ففصلته على قدر ماوعيت . وإنى أقدم للقارئ هنا ما حفظته عن الشيخ العلامة في ذلك المجلس :